

سنوات القلق 551 – 553 هـ \ 1156 – 1158 م حينما زلزلت الشّام وتوقفت حروب المُسلمين والصليبيين

أطلق بعض من المؤرّخين العرب المُعاصرين على الفترة المُمتدّة بين سنتيّ 550 و557 هـ \ 1155 – 1162 م، تسمية «سنوات القلق» نظرًا لما طرأ فيها من مُشكلاتٍ وكوارث على حياة أهل الشّام والأناضول تحديدًا. تُوفي خلال هذه الفترة السُلطان مسعود بن قلع أرسلان السُلجوقي صاحب قونية، وخلفه ابنه عز الدين قلع أرسلان الذي واجه في مُستهل حياته السياسيّة مُشكلات كثيرة لعلّ أهمها ثورة أخيه شاهنشاه ضدّ حكمه، فاستغلّ جيرانه الدانشمنديّون والروم والأرمن والزنكيّون انشغاله بالصراع الداخلي، وحاول كلّ منهم السيطرة على قسمٍ من دولة سلاجقة الروم، فنشبت صراعات عديدة انتهت بتوطيد عز الدين المذكور سُلطته. وبزغ في هذه الفترة أيضًا نجم الفارس الصليبي «أرناط» (رينو دي شاتيون = Renaud de Châtillon) الذي اشتهر بِشدّته على المُسلمين وقلة حفظه لعهودهم، وكان حينذاك قد تزوّج قسطنس أميرة أنطاكية¹ وأصبح بموجب هذا الزواج حاكم تلك الإمارة، وما أن تولّى حتّى أرسل، في أوائل سنة 551 هـ المُوافقة لِسنة 1156 م، قُوّة عسكريّة هاجمت حلب وعانت فسادًا في بعض أعمالها، فهاجمه الملك العادل نور الدين محمود زنكي وأجبره على المُهادنة².

لكنّ أبرز ما حلّ خلال هذه الفترة من مصائب وشغل المُسلمين والصليبيين عن الحرب، كان سلسلة من الزلازل العنيفة (بلغت قُرابة أربعين زلزلة) التي ضربت الديار الشّاميّة وأهلكت الآلاف ودُمّرت الكثير من البلاد ما بين سنتيّ 551 و553 هـ \ 1156 – 1158 م، وكانت ذُروتها سنة 552 هـ المُوافقة لِسنة 1157 م، في ما عُرف بـ«زلزال حماة».

يذكر ابن القلانسي، الذي شهد هذه الكوارث، أنّ بداية الزلازل كانت ليلة الخميس 9 شعبان 551 هـ المُوافق 27 أيلول (سبتمبر) 1156 م، وفيه وقعت زلزلة عظيمة رجفت بها الأرض ثلاث مراتٍ أو أربع، أي لحقتها ثلاث هزّات ارتدادية على الأقل³. ثمّ وافاها في ليلة الأربعاء 22 شعبان 551 هـ المُوافق 10 تشرين الأوّل (أكتوبر) 1156 م زلزلة شديدة، ثمّ تبعها زلزال آخر، ثمّ جاءت «ثلاثٌ دونهنّ»⁴، أي ثلاثة هزّات ارتدادية كما يُفهم، وبعد يومين، أي السبت 25 شعبان المُوافق 12 تشرين الأوّل (أكتوبر) وقعت زلزلة عنيفة جدًّا، يقول ابن القلانسي: «ارتاع الناس منها في أوّل النهار وآخره ثمّ سكنت بقُدرة مُحركها سُبْحانه وتعالى»⁵.

وكانت حلب وحماة ونواحي الشّام الشماليّة الأكثر تضرُّرًا بهذه الزلازل، فانهدمت مواضع كثيرة فيها، منها برجٌ من أبراج مدينة أفامية التاريخيّة. ثم تتابعت الزلازل، وازدادت شدّةً وعنفًا، ففي يوم الأربعاء 29 شعبان

¹ Barber (2012), p. 206 .

² Elisseeff (1967), p. 502 – 503 .

³ ابن القلانسي (1908)، ص 334 .

⁴ المرجع السابق، ص 334 – 335 .

⁵ المرجع السابق .

551هـ الموافق 17 تشرين الأول (أكتوبر) 1156م وقعت زلزلة في آخر النهار، تبعثها أخرى في الليل. وفي يوم الإثنين 1 رمضان الموافق 18 تشرين الأول (أكتوبر) 1156م وقعت «زلزلة مروعَة لِلْقُلُوب وعادت ثانية وثالثة ثُمَّ وافي بعد ذلك في يوم الثلاثاء ثالثة ثلاث زلازل إحداهُنَّ في أوله هائلة والثانية والثالثة دون الأولى وأخرى في وقت الظهر مُشاكلة لَهُنَّ ووافي بعد ذلك أخرى هائلة أيقظت النيام ورَّعت الْقُلُوب انتصاف الليل، فسُبْحان القادر على ذلك»⁶.

وما أن انتصف شهر رمضان حتَّى ضرب البلاد زلزالٌ عظيم جديد، ثُمَّ توقفت الزلازل حتى دخل شهر شَوَّال، ففي يوم الأحد الثاني من الشهر المذكور الموافق 18 تشرين الثاني (نوفمبر) «وافت زلزلة أعظم ممَّا تقدَّم رَوَّعت الناس وأزعجتهم، وفي يوم الخميس سابع شَوَّال المذكور وافت زلزلة هائلة في وقت صلاة الغداة، وفي يوم الإثنين تلوهُ وافت زلزلة أخرى مثلها ثُمَّ أخرى بعدها دونها ثُمَّ ثالثة ثُمَّ رابعة. وفي ليلة الأحد الثاني والعشرين من شَوَّال وافت زلزلة عظيمة رَوَّعت النُفُوس ثُمَّ وافي عقيب ذاك ما أهمل لكثرتِه...». ويذكر ابن القلانسي أَّلا أبنية تهدمت في دمشق وضواحيها، على عكس حلب وشيزر التي كُثِر فيها الخراب والدمار، وقُتل كثيرٌ من أهلها، وأما سُكَّان كفرطاب وحماة فهجروهما خوفاً على حياتهم⁷.



أطلال قلعة شيزر التي تهدمت في زلزال حماة سنة 552هـ = 1157م. المصدر: [ويكيبيديا كومنز](#)

تجددت الزلازل ابتداءً من شهر صفر سنة 552هـ الموافق شهر نيسان (أبريل) سنة 1157م، واستمرَّت مُتقطَّعة حتَّى شهر ذي القعدة الموافق شهر كانون الأول (ديسمبر)، وتعرَّض وادي نهر العاصي لزلزلة تبلغ

⁶ . ابن القلانسي (1908) ص 335

⁷ . المرجع السابق، ص 335 – 336

من العنف الغاية وعَظُم الضرر في حماة حتى-سمّى المؤرخون الزلزال «زلزال حماة». وتضررت دمشق هذه المرة، فهرب الناس من بيوتهم وسكنوا البراري لفترة، وهُدم أغلب ما أُعيد بناؤه في حلب وحماة والبلاد الشماليّة، وانهارت آثارٌ قديمة عديدة⁸، وسقطت قلعة شيزر على رؤوس من فيها من أمراء بني مُنقذ، ولم ينج منهم إلّا الأمير الأديب، والفارس المُجاهد أسامة بن مُنقذ، الذي كان حينها في دمشق⁹. وطالت أضرار الزلزال كلّاً من حمص وسلميّة ومعرة النُعمان وطرابلس الشّام وجُبيل وبيروت وصُور¹⁰.

يقول ابن القلانسي في وصف هول الكارثة والرعب الذي أحدثته في النُفوس: «ووردت الأخبار من ناحية الشمال بما يسوء سماعه ويُرعب النُفوس ذكره بحيث انهدمت حماة وقلعتها وسائر دورها ومنازلها على أهلها من الشُّيوخ والشَّبّان والأطفال والنسوان وهُم العدد الكثير والجَمّ الغفير بحيث لم يسلم منهم إلّا القليل اليسير. وأمّا شيزر فإنّ ربضها سلم إلّا ما كان خرب أولّاً، وأمّا حصنها المذكور فإنّه انهدم على واليها تاج الدولة بن أبي العساكر بن مُنقذ رحمه الله ومن تبعه إلّا اليسير ممّن كان خارجاً. وأمّا حمص فإنّ أهلها كانوا قد أُجفلوا منها إلى ظاهرها وسلموا وتلفت مساكنهم وتلفت قلعتها، وأمّا حلب فهُدمت بعض دورها وخرج أهلها، وأمّا ما بُعد عنها من الحُصُون والمعازل إلى جبلة وجُبيل فأثّرت فيها. وأُتلفت سلميّة وما اتّصلت بها إلى ناحية الرحبة وما جاورها، ولو لم تُدرك العباد والبلاد رحمة الله تعالى ولُطفه ورحمته ورأفته لكان الخطب الأخير والأمر الفظيع المُزعج...»¹¹.

قدّر باحثون مُعاصرون في ورقة بحثيّة نُشرت في دوريّة «حوليات الفيزياء الأرضيّة = Annals of Geophysics» سنة 2005م قُوّة زلزال حماة المذكور بِقُرابة 7.4 درجات على مقياس العزم¹²، كما قدّر المركز الوطني للبيانات الفيزيائيّة الأرضيّة (National Geophysical Data Center) مجمل ما حصده من ضحايا بِقُرابة ثمانية آلاف إنسان، وجعلوا درجتها وفق مقياس ميركالي المُعدّل (Modified Mercalli intensity scale) تتراوح بين الثامنة المُصنّفة «شديدة» (VIII Severe) والتاسعة المُصنّفة «عنيفة» (IX Violent).

وتوالى وُقُوع الزلازل في سنة 553هـ المُوافقة لِسنة 1158م، ولكنها لم تكن بِالشّدّة نفسها، وقد شُغل المُسلمون والصليبيّون معاً بِهذه الزلازل وانصرفوا إلى عمارة ما تخرب من المُدن وما تهدّم من القلاع، فتوقفت بِذلك العمليّات العسكريّة لِفترةٍ من الزمن.

⁸ . ابن القلانسي (1908) ص 343 – 344

⁹ . معلوف (1983) ص 197

¹⁰ . Ambraseys (2004) Vol. 47 (issue 2–3): pp. 733, 738, 745, 750

¹¹ . ابن القلانسي، مرجع سابق، ص 344

¹² . Sbeinati & Darawcheh (2005) Vol. 48 (issue 3) pp. 347–435